

منهج الزمخشري في دراسة المجاز
أ.مكي عبد الكريم - جامعة تلمسان

الملخص

إنّ توظيف المجاز من أهم الأدوات اللغوية في أدبية القول وجماليته. وهو طريق العرب في التعبير عن مقاصدهم، وبيان ما يطرأ على تأويل كلامهم . ومن ثمّ كان لزاما على الزمخشري أن يشق طريق المجاز الذي أصبح ضرورة لغوية لا مناص عنه في تأويل المعنى، والإدلاء بآرائه الاعتزالية فيه. وهو ما سيتعرّض له هذا البحث.

الزمخشري والمجاز

لقد تعرّض الزمخشري لكثير من نصوص القرآن العظيم مبرزاً أهمية المجاز العقلي، وهو الذي يسند فيه الفعل إلى غير فاعله الحقيقي، وقد عرّفه الجرجاني بقوله: "المجاز: مفعّل من جاز الشيء يجوزه إذا تعداه، وإذا عدل باللفظ عما يوجبه أصل اللغة، وصف بأنّه مجاز، على معنى أنهم جازوا به موضعه الأصلي، أو جاز هو مكانه الذي وضع فيه أولاً" (1)

ولم يكتف الجرجاني بهذا التعريف الجامع، بل دعمه بأمثلة حية تنبئ عن مدى استيعابه لكلام العرب، وكلام الله عزّ وجلّ، فقال: والمثال فيه قولهم: "نهارك صائم، وليلك قائم ونام ليلي، وتجلّى همي، وقوله تعالى: (فما ربحت تجارتهم) (2) ثم شرع في تحليل هذه النصوص القيمة، وأنها تحمل في ثناياها مجازاً في التركيب بكامله لا في الألفاظ وحدها، ويتوقّف بشيء من التحليل المجازي في الآية فمن ذلك مثلاً لفظ

" ربحت " فليس المجاز في هذا اللفظ نفسه ، ولكن في إسنادها إلى التجارة . وهكذا بقية الأمثلة يبين سرّ جمالها بانضمام الكلم إلى بعضه ، فإذا قلنا على سبيل التمثيل : " أنبت الربيع البقل " فقد وقع المجاز في إسناد الإنبات إلى الربيع ، وهو في الحقيقة لله عزّ وجلّ . أمّا إذا تركنا المجاز في الأمثلة السالفة الذكر ، فإنّ الكلام يكون عاريا عن الذوق البلاغي والاتساع في طرق البيان الذي هو كنز من كنوز البلاغة . ويشير عبد القاهر الجرجاني إلى ذلك قائلا : " واعلم أنّ الذي ذكرت لك في المجاز هناك ، من أنّ من شأنه أن يفنم عليه المعنى ، وتحدث فيه النباهة ، قائم لك مثله ههنا ، فليس يشتهبه على عاقل أن ليس حال المعنى وموقعه في قوله :

فنام ليلي وتجلّى همي (3)

كحاله وموقعه إذا أنت تركت المجاز وقلت : " فنمت في ليلي وتجلّى همي ، كما لم يكن الحال في قولك رأيت أسدا كالحال في رأيت رجلا كالأسد ، ومن الذي يخفى عليه مكان العلو ، وموضع المزية ، وصورة الفرقان بين قوله تعالى : (فما ربحت تجارتهم) . (4) وبين أن يقال : " فما ربحوا في تجارتهم . ؟ " (5)

و هكذا يبين عبد القاهر الجرجاني الفرق بين دور المجاز في الكلام ، وما يتركه من أثر نفسي في المتلقي والسامع .

على أنّ الزّخشي يصبغ المجاز العقلي بصبغة اعتزالية ، وهذا لتنزيه ذات الله تعالى ، عن فعل القبيح الذي يأباه المعتزلة خدمة لأغراضهم الكلامية .

ومن بين الآيات التي بيّن الزّخشي فيها المجاز ، وصبغه بصبغة اعتزالية ، قول الله تعالى : (ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة .) (6) فذكر ما نصه : " ويجوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير الله ، فيكون الختم مسندا إلى

اسم الله على سبيل المجاز، وهو لغيره حقيقة تفسير هذا: أنّ للفعل ملابسات شتى يلبس الفاعل والمفعول به والمصدر والزمان والمكان، والمسبّب له، فإسناده إلى الفاعل حقيقة، وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز المسمى استعارة. وذلك لمضاهاتها الفاعل في ملابسة الفعل، كما يضاهي الرجل الأسد في جراته فيستعار له اسمه، فيقال في المفعول به (عيشة راضية). (7) (وماء دافق). (8) وفي عكسه: سيل مفعم، وفي المصدر: شعر شاعر. وذيل ذائل.* (9) وفي الزمان: نهاره صائم، وليله قائم، وفي المكان: طريق سائر. ونهر جار. وأهل مكة، يقولون: "صلى المقام" وفي المسبّب: بنى الأمير

المدينة. و"ناقة ضبوث وحلوب."* (10)

وقال :

إذا ردّ عافي القدر من يستعيرها (11)

فالشيطان هو الخاتم في الحقيقة أو الكافر إلا أنّ الله لما أقدره ومكنه أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى المسبب. (12)

ومن خلال هذا الطرح القيم للمجاز مع الاستشهاد بكثير من صوره التي قد ارتضاها العلماء فيما بعد، وقاسوا عليها أنواع المجاز. فقد مهّد الطريق للتعرف

أكثر على ضوابط المجاز. وفي الوقت نفسه كشف عن مذهبه الاعتزالي الذي كان يجاهر به، ويصدع به في المحافل العلمية. وحاول أن يستشهد لمواقفه بآيات

تبين نفي الظلم عن الذات العلية، كقوله تعالى: (وما أنا بظلام للعبيد). (13) وقوله تعالى: (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين). (14) وقوله تعالى: (إنّ الله لا يأمر بالفحشاء). (15) هي بعض الآيات التي بنى المعتزلة مذهبهم عليها وهي نفي القبيح

عن الله. لكن أيضا هناك ما يقابل هذه الآيات، كقوله تعالى: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا.) (16) وغيرها من الآيات التي لا يمكن حصرها.

وقد اجتهد الزمخشري في صرف إسناد ظاهر لفظ (الختم) لله عز وجل. ونسبته للشيطان عن طريق السببية مثل: بنى الأمير المدينة. وإسناد الختم المستعمل مجازا إلى الله هو للدلالة على أن الختم قد تمكن من قلوبهم، وأنه لا يرجى زواله فأصبح جبلة ملتصقة وسجية فيهم، فهو تأثير لازم لا يفارقهم ولا يبغون عنه حولا.

وإذا كنا قد بينا أننا أن الزمخشري أفاض القول في المجاز. وبين أن الختم في الآية هو إسناد الفعل لغير فاعله الحقيقي. فقد أفاض القول أيضا في قول الله عز وجل: (في قلوبهم مرض، فزادهم الله مرضا.) (17) ومحل الشاهد هو قول الله تعالى: (فزادهم الله مرضا.) (18) ولا يخفى على أحد أن الفعل [زاد] يدل على الزيادة التي هي ضد النقصان. وزيادة المرض هي زيادة في فعل القبيح وفعل القبيح مخالف لمعتقد المعتزلة. كما هو معروف في مذهبهم.

وهنا حاول الزمخشري تقويض الزيادة وتأويلها بما يخدم المذهب فقال: "ومعنى زيادة الله إياهم مرضا أنه كلما أنزل على رسوله الوحي فسمعوه كفروا به، فزادوا كفرا إلى كفرهم، فكأن الله هو الذي زادهم ما ازدادوه إسنادا للفعل إلى المسبب له. كما أسنده إلى السورة في قوله تعالى: (فزادهم رجسا إلى رجسهم.) (19) لكونها سببا.

والمتتبع لعرض الزمخشري يجده قد بذل الجهد ليصرف القول عن ظاهره ليحقق به لفكرة اعتزالية من أن ينسب إلى الله تعالى كل فعل قبيح. وصرف الآية عن ظاهرها حتى لا يصطدم بقاعدة الاعتزال التي تشير إلى ذلك "فإذا ورد عن الله تعالى كلام ظاهره

يخالف ما دلّت عليه أدلة العقول وجب صرفه عن ظاهره . إن كان له ظاهر . وحمله على ما يوافق الأدلة العقلية ويطابقها. " (20)

ويعزز أحد الباحثين هذه النظرية الخاصة بالتأويل المجازي ، بقوله: "، إنما كان الدافع إليه خدمة أغراضهم الاعتزالية ، والدفاع عن آرائهم ومعتقداتهم ، وحتى يستقيم لهم توجيه الآيات والنصوص التي تخالف هذه العقائد. " (21)

وأثناء شرحه لقول الله تعالى : (ويعدهم في طغيانهم يعمهون.) (22) نلاحظ أن اعتماد الزخشري على الجانب اللغوي كان هدفا رئيسا ومددا معينا في سبر أغوار اللغة والاستعانة بها في هذه الآية. فبعد أن أسهب في التحليل اللغوي للفظ (مدّ) والمعاني المحتملة قال: "فإن قلت: فكيف جاز أن يوليهم الله مددا في الطغيان وهو فعل الشياطين؟ ألا ترى إلى قوله تعالى: (وإخوانهم يمدوهم في الغي.) (23) قلت : "إمّا أن يحمل على أنّه لما يمنعه الله ألطافه التي يمنحها المؤمنين ، وخذلهم بسبب كفرهم وإصرارهم عليه بقيت قلوبهم بتزايد الرين والظلمة فيها تزايد الانشراح والنور في قلوب المؤمنين ، نسبي ذلك التزايد (مددا) وأسند إلى الله سبحانه لأنّه مسبب عن فعله بهم بسبب كفرهم . وإما على منع القسر والإلجاء .

وإما أن يسند فعل الشياطين إلى الله لأنّه بتمكينه وإقداره والتخيلية بينه وبين إغواء عباده. " (24)

والرأي الذي أرجحه في هذه الآية الكريمة أنّها من باب الحقيقة وليست من باب المجاز، وهذا هو الرأي الذي اهتدى إليه الإمام الطبري ، واختاره وسار على نهجه ، فقال : وأولى هذه الأقوال بالصواب في قوله تعالى: "ويعدهم .. " أن يكون بمعنى يزيدهم على وجه الإملاء والترك لهم في عتوهم وتمردهم ، كما وصف ربنا أنّه فعل

بنظرائهم في قول الله تعالى: (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون.) (25) يعني نذرهم ونتركهم فيه ونملي لهم ليزدادوا إثما إلى إثمهم ... وإثما عنى الله جل ثناؤه ،بقوله : (ويمدهم في طغيانهم) أنه يملي لهم ويذرهم ييغون في ضلالهم وكفرهم حيارى يترددون. " (26)

والنتيجة التي يريد أن ينتهي إليها الزمخشري أنّ الآية الكريمة تندرج ضمن المجاز العقلي وعلاقته السببية حين أشار قائلا: "أسند إلى الله سبحانه لأنه مسبب عن فعله لهم بسبب كفرهم. كما نراه في آية أخرى يطبق وجهة نظريته في دقة تامة وإحكام مبهر. وهذا ما لم يكن مساسا بأصول العقيدة الاعتزالية ، فقد تطرق لقول الله تعالى : (فما رجحت تجارتهم. " (27) فقال : "إن قلت: "كيف أسند الخسران إلى التجارة وهو لأصحابها. قلت: "هو من الإسناد المجازي ،وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له ، كما تلبست التجارة بالمشتريين .

فإن قلت: " هل يصح ربح عبدك وخسرت تجارتك على الإسناد المجازي ؟ قلت: "نعم إذا دلّت الحال. " (28)

والآية الكريمة السالفة الذكر ،لا تتضمن المجاز في لفظ "رجحت" نفسه ،ولكن في إسناد لفظ "التجارة" إليه.

ومن الآيات التي سلك فيها الزمخشري مسلك المجاز ابتغاء تأويلها وفق وجهة نظره الاعتزالية التي تنفي رؤية الله عز وجل في الآخرة ،قول الله عز وجل: (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة.) (29) فقد صرف النظر يوم القيامة إلى معان أخر فقال: "الوجه: عبارة عن الجملة. والناضرة من نضرة النعيم . "إلى ربها ناظرة" تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره ،وهذا معنى تقديم المفعول. ثم يسوق آيات حول المعنى الذي يريد

الوقوف عليه ،فبعد عرض الشواهد وسوقها يتوقف في الفحص في معنى الآية المباركة ،وتأويلها إلى مذهبه فيقول: "ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر، ولا تدخل تحت العدد في محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم والذي يصح أن معه من أن يكون من قول الناس، أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي : تريد معنى التوقع والرجاء.ومنه قول القائل:

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدني نعماً (30)

ولا يكتفي الزمخشري بالأمثلة السابقة بل يستشهد بالسمع من امرأة عربية فقال: "وسمعت سرورية مستجدية بمكة وقت الظهر حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقاييلهم تقول: "عيني نويطرة إلى الله وإليكم، والمعنى أنهم لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربه، كما كانوا في الدنيا لا يخشون ولا يرجون إلا إياه." (31)

وهكذا "فالمعتزلة ينفون نفياً قاطعاً إمكانية رؤية الله عز وجل على أساس أنّ رؤية الله لا تجوز إلا على الأجسام المتحيزة في المكان والقائمة في جهة وبذلك يذهبون إلى نفي الرؤية في الدنيا والآخرة على السواء." (32)

غير أنّ ابن المنير يرد على الزمخشري في الرؤية قائلاً: "ما أقصر لسانه عند هذه الآية، فكم له يدندن ويطيل في جحد الرؤية ويشقق القباء ويكثر ويتعمق، فلما فغرت هذه الآية فاه صنع في مصامتها بالاستدلال، على أنّه لو كان المراد الرؤية لما انحصرت بتقديم المفعول... نسال الله عز وجل أن لا يصرف عنا وجهه، وأن يعيذنا من مزالق البدعة، ومزلات الشبهة، وهو حسبنا ونعم الوكيل." (33)

لكن الذي عليه المحققون في هذه الآية المباركة أنّ لفظ "ناضرة" من النضرة التي هي الحسن والنعمة. والثاني: من النظر، أي: وجوه المؤمنين مشرقة حسنة ناعمة... من النظر، أي: تنظر إلى ربها على هذا جمهور العلماء مصداقا لقول الله تعالى: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة.) (34) ففسرت الزيادة بمعنى النظر إلى وجه الله. " (35)

ويكاد يجمع أهل السنة على رأي واحد في تفسير هذه الآية المباركة فقد ذهب الإمام الطبري أنّ ناضرة، قال بالبياض والصفاء. وناظرة قال: "تنظر كل يوم في وجه الله عزّ وجل." (36)

ويقول صاحب التنوير والتحرير أثناء شرحه لهذه الآية قائلا: "وظاهر لفظ "ناظرة" أنّه من نظر بمعنى عاين ببصره إعلانا بتشريف تلك الوجوه أنّها تنظر إلى جانب الله تعالى نظرا خاصا لا يشاركها فيه من يكون دون رتبهم، فهذا معنى الآية بإجماله ثابت بظاهر القرآن، وقد أيّدتها الأخبار الصحيحة عن النبي صلى الله عليه وسلم." (37)

هذه هي نظرة أهل السنة لرؤية النظر إلى وجه الله بأنّها حقيقية يوم القيامة، ولا داعي إلى تأويل لفظ النظر إلى معان هي بعيدة عن معناه الحقيقي، بخلاف ما ذهب إليه الزمخشري الذي أول النظر: بمعنى التوقع والرجاء.

ومن الآيات التي سلكت مسلك المجاز، وأجريت مجرى العقلاء، قوله تعالى: (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) (38) فقد التفت الزمخشري للآية المباركة، مستفهما عن إجرائها مجرى العقلاء. فقال: (رأيتهم لي ساجدين) فإن قلت: فلم أجريت مجرى العقلاء في: (رأيتهم لي ساجدين).؟ قلت: لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود

أجرى عليها حكمهم كأنها عاقلة ، وهذا كثير شائع في كلامهم أن يلبس الشيء الشيء من بعض الوجوه فيعطى حكما من أحكامه إظهارا لأثر الملابس والمقاربة." (39)

ولئن أدرك مجازية هذه الآية، فقد أطلق عليه هنا مصطلح: "يلبس". ولم يصبغه بصبغة اعتزالية لأن الآية بعيدة عن هذا المنحى.

وبعد عرض هذه الشواهد يمكن القول : إن رؤية الزمخشري للمجاز لا تخالف أعراف سنن سابقه المعتزلة للمجاز في القرآن الكريم. فأتناء تتبعنا لبعض الآيات التي تعرضنا لها آنفا وجدناه يترسم خطى السابقين ، ولا يكاد يخرج عن القواعد الخمس التي رسمها المعتزلة في تأسيس مذهبهم . كما وجدناه قد صرف بعض الآيات إلى المجاز الذي أصبح ضرورة حتمية ، لا مناص عنه ، يقتضيها التأويل ، ومضى يطبقه بهذا المفهوم على كثير من الآيات المتشابهات ، التي تشعر بالجبر والإرغام ، أو تنسب إلى تزيين السوء والفحشاء ، أو غير ذلك مما ينكره المعتزلة الذين أولوا به كثيرا من هذه الآيات ، وبنتاق واسع في دراساتهم القرآنية واللغوية ، خدمة لمبدأ المذهب الاعتزالي ، وقد استنبطوا كثيرا من خصائص وميزات الدرس البلاغي وأقاموا حوله دراسات واسعة مركزة ، وقد كان من نتيجة الجدل الطويل الذي دار بين المعتزلة ، وغيرهم من أصحاب الفرق والطوائف الأخرى حول المجاز ، وسائر ألوان الدرس البلاغي ودفاع المعتزلة عن ذلك دفاعا مدعوما بالحجج والبراهين المقنعة مستندا إلى المتناقل الموروث من كلام العرب ، أن أدرك الجميع على " أن المجاز ضرورة لا بد منها ، وهو من مستلزمات التعبير ، وخصيصة مهمة من خصائص العربية ، وكان من أثر ذلك أن أقبل العلماء على دراسة كثير من أشكال التعبير والصور البلاغية والدروس البيانية في القرآن

الكريم". (40) ، واستفادوا كثيرا من تحديدات المعتزلة لمصطلحاتها ، وإيضاحهم لكثير من خصائصها ومميزاتها. ومن ثم نعى أبو حامد الغزالي على منكري المجاز قائلا : "ومن أهمل المجاز ولم يقم له وزنا، فقد اعتراه الغلط ولزمه ، ولم يدر من أين أتى.؟" (41)

وهكذا رغم الاختلاف المذهبي بين الزمخشري وابن المنير إلا أن ابن المنير لم يغمط حق الزمخشري وتفوقه العلمي والبلاغي فصعد قائلا: " فليت الزمخشري لم يتحدث في تفسير القرآن إلا من حيث علم البيان ، فإنه فيه أفرس الفرسان، لا يجارى في ميدانه ، ولا يمارى في بيانه." (42)

كما أشاد ابن خلدون بأعمال الزمخشري فقال : "ظهر جاز الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير ، وتتبع آي القرآن بإحكام هذا الفن ، بما يبدي البعض من إعجازه ، فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير..." (43)

هذه بعض الآيات التي بينا فيها وجهة الزمخشري القائمة على توظيف المجاز خدمة للفكر الاعتزالي، فبدأ أثر تفسيره لآي الذكر الحكيم ، وأثر في توجيهات المعاصرين له والخالفين .

الإحالات :

1. أسرار البلاغة، ص: 395
2. سورة البقرة: الآية: 16
3. فنام ليلى وتجلّى همي *
هو رجز رؤية في ديوانه، يقوله للحارث من سليم، وقبله:
* حارث قد فرّجت عني غمي
ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 294
4. سورة البقرة: الآية: 16
5. دلائل الإعجاز، ص: 295
6. سورة البقرة: الآية: 7
7. سورة القارعة: الآية: 7
8. سورة الطارق: الآية: 6
- ينظر: الإيضاح في علوم البلاغة، 117/1
9. يقال: ذيل ذائل، وهو الهوان والخزي. ينظر: الصحاح في اللغة، 1/232. واللسان، 11/260. مادة ذيل.
10. ضبث: الضاد والباء والفاء: أصل صحيح يدل على قبض. يقال: ضبث، إذا قبض على الشيء. ويقال: ناقة ضبوث: يشكّ في سمنها، فتضبث بالأيدي. ينظر: معجم مقاييس اللغة، ص: 608.
- ناقة ضبوث: أي يشكّ في سمنها وهزالها حتى تضبث باليد، أي: تجس. ينظر: الصحاح في اللغة، 2/19. مادة: ضبث. وناقة ضغوث مثل ضبوث، وهي التي يضغث الضاغث سنامها أي: يقبض عليه بكفه، أو يلمسه لينظر أسمىة هي أم لا؟ ينظر: اللسان 163/2 مادة ضبث.
- ومن المجاز: ناقة ضبوث... وإنما جعلت ضابثة لما بها من الداعي إلى الضبث ومثلها الحلوب والركوب. فوزن فعول: بمعنى فاعل. ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة، ص: 265
11. تمام البيت هو:
فلا تسألني، وأسألي ما خليقتي *
- وينسب للكميت، ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة، ص: 308
12. الكشف، 1/162
13. سورة ق: الآية: 29
14. سورة الزخرف: الآية: 76
15. سورة الأعراف: الآية: 28
16. سورة الكهف: الآية: 28
17. سورة البقرة: الآية: 10
18. نفس السورة: الآية: 10

19. سورة التوبة: الآية: 125
20. أمالي المرتضى: 120/2
21. التراث النقدي والبلاغي حتى نهاية القرن السادس: 210/1
22. سورة البقرة: الآية: 15
23. سورة الأعراف: الآية: 202
24. الكشف، 189/1
25. سورة الأعراف: الآية: 110
26. جامع البيان في تفسير القرآن 223/1
27. سورة البقرة: الآية: 16
28. الكشف، 189/1
29. سورة القيامة: الآية: 23
30. وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدني نعماً
ينظر: الكشف، 192/4
31. نفسه، 192/4
32. الاتجاه العقلي في التفسير، ص: 151
33. الكشف، 192/4
34. سورة يونس: الآية: 26
35. الجامع لأحكام القرآن، 77/19
36. جامع البيان، 8346/10
37. التحرير والتنوير، 353/29
38. سورة يوسف: الآية: 4
39. الكشف، 303/2
40. التراث النقدي والبلاغي، ص: 371
41. المعيار في العلم، ص: 91
42. حاشية الكشف، 627/1
43. مقدمة ابن خلدون، ص: 343